الفصل التاسع

نزاع الأسرتين

قصدنا جميعًا يوم الأحد التالي الكنيسة. طلبت مني الآنسة صوفيا بعد العشاء مساء ذلك اليوم أن أحضر لها كتابها المقدس من الكنيسة لأنها نسته هناك، فقصدت الكنيسة وعثرت عليه. استغربت توترها لذلك، فلما هززت الكتاب سقطت منه ورقة كتب عليها «الثانية والنصف».

ولما عدت إلى البيت صحبتني الآنسة صوفيا إلى غرفتها ونظرت إلى الكتاب، فلما عَثَرَت على الورقة وقرأتها سألتني إن كنت قد قرأتها، فكذبت وزعمت أنني لا أستطيع القراءة، فاحتضنتني وطلبت مني أن أخرج للعب.

كان أحد العبيد بالخارج يتعقبني، فلما سألته عن السبب أخبرني بأن هناك شيئًا مهمًّا عليه أن يريني إياه، فتبعته إلى مستنقع يبعد عن المنزل، فأشار لي إلى نقطة بعيدة طلب مني أن أتفقدها ثم غادر.

وجدت باحة صغيرة مفتوحة بحجم غرفة نوم كبيرة تتدلى من كل أنحائها عناقيد العنب تمدد بها رجل نائم، كان هذا جيم العجوز!

أيقظته، فسعد بشدة لرؤيتي حتى إنه كاد يبكي. قال إنه تبعني في الماء مساء اليوم الذي حيل فيه بينه وبيني، لكنه لم يستطع أن يناديني خشية أن يسمعه أحد ويمسك به.

فسألته: «لمَ لمْ تأت وتأخذني قبل الآن يا جيم؟»

فقال: «كنت منشغلًا بجمع بعض المعدات وإصلاح الطوف.»

– «أي طوف يا جيم؟»

– «طوفنا القديم.»

– «أتعني أنه لم يتحطم تمامًا؟»

– «لا بل تحطم إلى حد كبير، لكنني استطعت إصلاحه إلى درجة جيدة، ولما وجدتك آمنًا في المنزل القديم، صادقت بعض عبيد آل جرينجرفورد، وهم خبئوني هنا.»

فطلبت من جيم أن يلزم مكانه ثم عدت أدراجي إلى المنزل.

لا أود أن أتحدث كثيرًا عن اليوم التالي. أعتقد أنني أستطيع اختصاره. استيقظت مبكرًا ولاحظت أن المكان يخيم عليه الهدوء الشديد، وبدا أنه خلا من الحركة، الأمر الذي كان غريبًا. لم يكن باك أو أي شخص بالمنزل، فخرجت وسألت أحد العبيد عن الأمر، فأخبرني أن الآنسة صوفيا قد فرت مع فرد من آل شيبردسون. كان كل منهما مغرم بالآخر! من ثم ذهب أفراد كلا الأسرتين لقتال بعضهم بعضًا.

اتجهت نحو النهر ولم ألبث أن سمعت صوت طلقات بنادق، فتسلقت إحدى الأشجار وشاهدت المعركة. كانت مخيفة. تقاتلت الأسرتان قتالًا شرسًا. وجدت باك فأخبرني عن فرار الآنسة صوفيا مع الشاب هارني شيبردسون. قال باك إنهما عبرا النهر بأمان، فسعدت بهذا، لكن باك شعر بالسخط لأنه لم يطلق النار من قبل على هارني. لم أسمع قط بشيء كهذا.

فجأة دوى صوت ثلاث أو أربع بنادق: «بوم! بوم! بوم!». قفز باك والفتية الذين معه إلى النهر وبدا أنهم أصيبوا من جراء ذلك، ولما أخذوا يسبحون مع ماء النهر ركض بعض الرجال على الضفة وهم يطلقون النار عليهم. أشعرني هذا بالغثيان الشديد حتى إنني كدت أسقطت من على الشجرة. لن أقص عليكم كل ما وقع بعد ذلك، فسأشعر بالغثيان مجددًا إن فعلت. تمنيت لو أنني لم آت قط إلى الشاطئ مساء ذلك اليوم لأرى هذه الأشياء، لن أنساها قط.

ظللت على الشجرة إلى أن بدأ الظلام يحل. خفت أن أنزل إلى الأرض، إذ تنامت إلى مسامعي في بعض الأحيان أصوات طلقات رصاص من بعيد بالغابة، ورأيت مرتين مجموعة من الرجال يمرون سريعًا حاملين بنادق، فاعتقدت أن المشكلة لا تزال قائمة. شعرت بالإحباط الشديد، فقررت ألا أقرب هذا المنزل مجددًا. ظننت أنني الملام نوعًا ما؛ إذ حسبت أن الورقة عنت أن الآنسة صوفيا كانت ستلقى هاري في مكان ما الساعة الثانية والنصف وتفر. كان علي أن أخبر أباها بأمر تلك الورقة، وبتصرفاتها الغريبة، ربما لم تكن تلك الفوضى الرهيبة لتقع.

عندما نزلت من على الشجرة، زحفت على ضفاف النهر وبكيت باك قليلًا، إذ كان لطيفًا للغاية معي، ثم حل الظلام. لم أقرب ذلك المنزل مجددًا أبدًا، بل شققت طريقي

وسط الغابة واتجهت إلى المستنقع، إلا أنني كنت خائفًا! أطلقت صرخةً، فقال صوت: «أهذا أنت؟»

كان هذا صوت جيم، لم أسمع بشيء قط أعذب من ذلك، فركضت على ضفاف النهر وصعدت على متن طوفنا. سعد جيم جدًّا لرؤيتي حتى إنه أمسك بي واحتضنني، ثم قال: «بوركت يا صغير. كنت موقنًا أنك لقيت حتفك مجددًا؛ جاءني العبيد قبل برهة. لقد حسبوا أنك أرديت قتيلًا بالرصاص. كم أنا سعيد بعودتك إليّ مجددًا!»

فقلت: «حسنًا، هذا رائع، لن يعثروا علي. سيحسبون أنني قد قتلت وطفوت مع ماء النهر. لا تضيع الوقت يا جيم. لنغادر الشاطئ ونتجه إلى مياه النهر الهائلة على جناح السرعة.»

سعدت بشدة للفرار من تلك المعركة، وسعد جيم بمغادرة المستنقع. قلنا إن الطوف هو أفضل سكن لنا على أي حال، فالأماكن الأخرى تبدو ضيقة وخانقة، أما الطوف فليس كذلك. يشعر المرء بالحرية والاطمئنان والراحة على الطوف.

الفصل العاشر

ملك ودوق

مرت ثلاثة أيام وليال هادئة، لطيفة، بلا مشكلات. كان النهر هائلًا، بلغ عرضه أحيانًا ميلًا ونصف ميل. ارتحلنا عبره ليلًا وخبأنا الطوف قبل بزوغ النهار، ثم كنا نسبح ونترقب ضوء النهار.

كنا نأخذ الطوف ما إن يحل الظلام إلى وسط النهر ونتركه يطفو إلى حيث يشاء تيار الماء، ثم نسترخي، ونترك أرجلنا تتدلى في الماء ونتحدث عن أي مما يطرأ من الأمور، وكنا على الدوام مجردين من الثياب، على الأقل في الأوقات التي سمح لنا فيها الباعوض بهذا.

الثياب الجديدة التي أعطتني إياها أسرة باك كانت جيدة إلى حد أنها لم تكن مريحة، فضلًا على أنني لم أحب ارتداء الثياب كثيرًا.

خلا النهر بأسره لنا أحيانًا لأوقات طويلة جدًّا، وأحيانًا أمكننا رؤية شعلة أو اثنتين من شمعة أو مصباح على طوف أو كوخ على مقربة من الشاطئ، وتنامى إلى أسماعنا بين الحين والآخر صوت كمان أو أغنية قادمة من مكان ما. الحياة على طوف جميلة. رقطت النجوم السماء، فكنا نستلقي على ظهرينا ونتأملها وحسب.

جدفت عكس تيار النهر صباح يوم ما لأرى إن كان بمقدوري جمع بعض ثمر العليق، لكن أثناء مروري بنقطة تقاطعت فيها مياه النهر مع رافد صغير، أتى رجلان يركضان مع تيار النهر بأقصى سرعتهما، فشعرت أنني هالك لا محالة؛ إذ كلما بدأت مطاردة شخص ما، شعرت بأنني أو جيم الشخص المطارد. كدت أن أجدف مبتعدًا، لكنهما كانا بحلول الوقت قد اقتربا بشدة مني ونادياني ورجياني أن أنقذهما، وقالا إنهما لم يقترفا ذنبًا، لكنهما مطاردان، وثمة رجال وكلاب قادمون.

فصعدا على متن الطوف وتنامت إلى أسماعنا في غضون دقائق صيحات مجموعة من الكلاب والرجال من مكان بعيد، فجدفت بين الأشجار واختبأنا منهم.

أحد هذين الشخصين كان في السبعين تقريبًا من العمر؛ كان أصلع الرأس ذا شارب رمادي اللون تمامًا، ارتدى قبعة بالية متهدلة وقميصًا أزرق ملطخًا بالشحم، وبنطالًا جينزًا ممزقًا حشا به رقبة حذائه الطويلة، أما الرجل الآخر فقد ناهز الثلاثين تقريبًا من العمر وارتدى الزي ذاته، وكلا الرجلين حمل خُرجًا ضخمًا.

بعد تناول الإفطار تحدثنا، أول ما اتضح هو أن هذين الرجلان لم يعرف أحدهما الآخر.

سأل الرجل الأصلع الرجل الآخر: «ما الذي أوقع بك في مشكلة؟»

فأجابه: «حسنًا، كنت أبيع أداة تنزع الصفرة عن الأسنان، وهي تنزعها بالفعل، لكنها تنزع معها ميناء الأسنان فقط، ثم مكثت هناك لليلة أخرى لم يكن من المفترض أن أمكثها. كنت بصدد الفرار لتوي عندما التقيتك في طريقي، فأخبرتني أنت بأنهم قادمون ورجوتني أن أساعدك على الفرار، فأخبرتك بأنني كنت أتوقع أنني سأقع في ورطة، وسأفر سريعًا معك، هذه هي القصة برمتها. ما هي قصتك؟»

فقال الأصلع: «حسنًا. أدرت أسبوعًا اجتماعات دينية صغيرة؛ أُحدِّث الأُسر عن السلوك الذي يجب أن يتبعوه، وأتقاضى نظير ذلك مبلغًا يصل إلى خمسة أو ستة دولارات في الليلة الواحدة — عشرة سنتات نظير الفرد — لكن دارت شائعات مساء الأمس بأنني أرتكب أفعالًا مشينة في الخفاء، وسمعت صباح اليوم أن القوم يجتمعون، وأنهم إن أمسكوا بي فسيلطخونني بالقطران ثم يكسونني بالريش، ثم سيضعونني فوق قضيب معدني ويتجولون بي في البلدة وأصبح مثارًا للسخرية.

قال الشاب: «أيها العجوز، أعتقد أننا نستطيع أن نشكل فريقًا معًا. ما رأيك؟»

– «أستطيع ذلك. ما هو مجال عملك الأساسي؟»

– «أنا عامل طباعة، لكنني في العادة أبيع بعض الأدوية أو أعمل ممثل مسرح. كثيرة هي الأعمال التي أستطيع أداءها، أعمل في أية مهنة نافعة.»

– «أنا بدوري مارست الطب في شبابي، كما أنني أجيد قراءة الطالع عندما يكون معي من يستطيع تقصي الحقائق لي، كما أجيد إلقاء الدروس الدينية.»

لم يتحدث أحد لبرهة، ثم تنهد الشاب وقال: «وا أسفاه.»

فسأله الأصلع: «علامَ تأسف؟»

فأجابه: «كم أعجب من أنني أعيش حياة كتلك، ومن أنني مرغم على تلك الرفقة …» وأخذ يمسح طرف عينه بخرقة قديمة.

فقال الرجل الأصلع: «ألا تليق هذه الرفقة بك؟»

– «بل تليق بي. إنها ما أستحق، على أحسن تقدير. لا ألومكم أيها السادة، بل على العكس؛ لا ألوم أحدًا البتة. أنا أستحق كل هذا. أنا من انحدر بنفسه، أنا من فعل هذا بنفسه.»

– «انحدر بنفسه من ماذا؟»

– «آه، لن تصدقوني. سر مولدي هو أنني …»

– «سر مولدك! أتعني أنــ …»

فقال الشاب والجدية الشديدة بادية عليه: «أيها السادة. سأكشف السر لكم، فأنا أشعر بالثقة تجاهكم. أنا دوق شرعًا! أنا دوق بيلجووتر الشرعي.»

وأخذ يبكي لما صار إليه من فقر شديد، فحاولنا التخفيف عنه، لكنه قال إن حزنه أكبر من أن تداويه كلمات المواساة. قال إن علينا أن ننحني له ونحن نخاطبه قائلين: «جلالتك» و«سيدي» و«سيادتك»، وإنه لا يمانع أن نناديه بـ«بيلجووتر» — لقبه — وإن على أحدنا أن يخدمه على العشاء، وأن ينفذ كل رغباته حتى أتفهها.

كان هذا سهلًا. فعلنا هذا، ووجدنا أن هذا الأمر أسعده، أما العجوز فصمت صمتًا مطبقًا ولم يبد عليه الارتياح. بدا أن هناك ما يدور برأسه، فيما بعد قال عصر هذا اليوم: «اسمع يا بيلجووتر. أشعر بالأسى لك، لكنك لست الوحيد الذي يعاني مشكلة كتلك.»

– «وا أسفاه!»

– «لا لست وحدك من يملك سرًّا، ثم أخذ يبكي.»

– «الشقي الذي يرتدي بنطالًا جينزًا أزرق ويقف أمامك يا بيلجووتر هو ملك فرنسا المستحق البائس المنفي الذي داسته الأقدام.»

لم يمض وقت طويل قبل أن أحسم أمري بأن هذين الكاذبين لم يكونا ملكًا ودوقًا على الإطلاق، بل نصابين حقيرين، لكنني لم أقل قط ما من شأنه أن يكشف أنني توصلت إلى هذه الحقيقة، لا أمانع إن كانا يريدان منا أن ندعوهما ملكًا ودوقًا، طالما أن هذا سيبقي على سير الأمور بسلام على الطوف. إن كان هناك ما قد تعلمته من أبي، فهو أن أفضل وسيلة للتعامل مع هذا النوع من الأشخاص هي مسايرتهم.

سألانا الكثير من الأسئلة عن سبب إخفائنا الطوف أثناء النهار، وعمن نفر منهم، فاختلقت قصة لهم؛ فأخبرتهم بأن أغلب أسرتي قد توفيت وبأنني كنت أعيش مع

جيم على الطوف مع أبي وأخي الصغير، وبأن الأخيرين سقطا من على الطوف عندما اصطدمنا بسفينة بخارية.

بدأ المطر يهطل تلك الليلة، وتنازع الدوق والملك قليلًا حول من سينام على الفرش. فراشي كان أفضل قليلًا من فراش جيم، وكلا الفراشين كان تحت خيمة صغيرة صنعها جيم من بعض الأغطية، فنام الكذابان على فراشينا، فيما سهرنا نحن وراقبنا المكان أثناء العاصفة.

الفصل الحادي عشر

مسرحية المخيم

اهتدى الملك والدوق في اليوم التالي إلى طريقة قد يتكسبان بها المال في البلدة الصغيرة المجاورة، فمكث جيم على الطوف، فيما ذهبت أنا معهما إلى هناك.

عندما بلغنا البلدة، كانت الشوارع خاوية، يخيم عليها السكون التام. عثر الدوق على مكتب للطباعة وقال إنه يستطيع الاشتغال ببعض الأعمال هناك وعلم الملك بانعقاد اجتماع في مخيم، فأخذني معه إليه.

كان هناك قرابة ألف شخص في الاجتماع الذي أقيم في سقيفة كبيرة. جلس الجميع على مقاعد وأصغوا إلى أناس يتحدثون عن حياتهم وعن الدين، وارتدت النساء أغطية رأس تحمي من الشمس، وبعض الشابات كن حافيات، أما المسنات فقد طرزن بعض الثياب، وتغازل الفتية والفتيات خلسة.

أثار الواعظ حماسة الجميع، فأخذوا يغنون ويصرخون. شعرت بأن الجنون والهيستيرية قد دبا، ولم ألبث أن وجدت الملك قد أخذ في الصراخ والتحدث كواعظ، حتى إنه تسلق منصة الاجتماع وأخذ يخبر الناس بأنه كان قرصانًا ثلاثين عامًا في المحيط الهندي، وبأنه أتى إلى هنا للبحث عن طاقم جديد، لكنه بعدما استمع إلى هؤلاء القوم أخبرهم بأنه قد تغير، وبأنه يود العودة إلى المحيط الهندي للتحدث مع غيره من القراصنة ليقنعهم بتغيير حياتهم.

ثم انفجر باكيًا، فأخذ الجميع بدورهم يبكون، ثم صاح شخص ما: «اجمعوا له بعض المال، اجمعوا بعض المال!» فمر الملك بين الحشد حاملًا قبعته في يده، وبحلول الوقت الذي بلغنا فيه طوفنا، كان قد جمع سبعة وثمانين دولارًا وخمسة سنتات.

تدرب الملك والدوق صباح اليوم التالي على أدوارهما في مسرحية تدعى روميو وجولييت، كان صوتهما مزعجًا. أخرجا سيفين طويلين صنعهما الدوق من بعض أفرع

الأشجار، وتدربا على مبارزة بالسيوف، ثم اختلقا مواقف أخرى لأدائها على المسرح، ثم قررا آخر الأمر أنهما صمما عرضًا شاملًا، وجربا المسرحية في البلدة مساء ذلك اليوم، لكنها كانت مريعة، لم يحضرها أحد تقريبًا.

علم الدوق بوجود سيرك في البلدة المجاورة. كان قد صنع ملصقات إعلانية جديدة من أجل العرض الذي أراد هو والملك تقديمه، كتب عليها إنه عرض «ضخم» ولن يسمح بدخول السيدات والأطفال فيه.

قال الدوق: «إن لم يفلح هذا في حثهم على القدوم إلى العرض، فلا أدري ما الذي عساه أن يفلح في ذلك.»

عمل الدوق والملك بجد في اليوم التالي، فنصبا مسرحًا بستائر ووضعا صفًّا من الشموع لإضاءته، وناقشا بعض الأفكار الجديدة من أجل عرض الليلة. اكتظ المسرح مساءً بالرجال الذين دفع كل منهم خمسين سنتًا لدخول المسرح. لقد أفلح الملصق الإعلاني الذي وضعه الدوق في التأثير فيهم.

خرج الدوق على المسرح وتحدث عن المسرحية وأخبر الحاضرين مرارًا وتكرارًا بأنها مسرحية بالغة العظمة، وبعدما رفع آمال الجميع، رفع ستار المسرح ثم أتى الملك زاحفًا على يديه وركبتيه وجسده كله ملون بألوان مختلفة كقوس قزح. كان هذا ضربًا من الجنون، إلا أنه كان مضحكًا، وكاد الحضور أن يغشى عليهم من الضحك، فلما فرغ الملك من التبختر على المسرح، صاحوا وصفقوا إلى أن عاد ثانية وكرر الأمر، ثم جعلوه يكرره مرة أخرى. كان أي شيء سيضحك لدى رؤية هذا العجوز.

ثم أغلق الدوق ستار المسرح وقال إن العرض قد انتهى، فصاح عشرون رجلًا: «ماذا؟ انتهى؟ هل هذا هو كل شيء؟»

فأجاب الدوق بنعم، ثم ساد الصمت لحظة، بعدها صاح الجميع ووقفوا شاعرين بالسخط، وكادوا يهاجمون المسرح والممثلَين لولا أن صاح بعدئذ رجل ضخم قائلًا: «مهلًا! اسمحوا لي بكلمة فقط أيها السادة. لقد خدعانا بالفعل، لكننا لن نصير أضحوكة البلدة بأسرها. علينا أن نغادر بهدوء وأن نمتدح هذا العرض؛ بإمكاننا أن نقنع البلدة بأسرها به، عندها سنكون جميعًا في مركب واحدة. أليست تلك خطة ذكية؟»

اكتظ المسرح في اليوم التالي. أدى الملك والدوق العرض نفسه للحضور الجدد، ثم اكتظ المسرح مجددًا بالحضور مساء الليلة الثالثة. جميع من حضروا عرض الليلتين الأوليين عادوا. وجدت جميع الرجال جيوبهم ممتلئة، بعضهم حمل حزمًا من شيء ما

تحت معطفه، وشممت رائحة بيض وكرنب فاسدين، ولما لم يتسع المسرح لاستيعاب المزيد من الحضور، بدأ الدوق في الاتجاه إلى باب المسرح وتبعته، وما إن اتجهنا إلى ركنه حتى صرنا في الظلام، فقال لي: «سر بسرعة الآن إلى أن تبتعد عن المنازل، ثم اركض إلى الطوف بأقصى سرعة.»

بلغنا الطوف سريعًا ولم يمض وقت طويل قبل أن نصبح جميعًا في النهر مجددًا. قال الدوق إنه علم أن الحضور سيحاولون خداعنا بالعودة لإلقاء الطعام الفاسد علينا، فقد أرادوا الانتقام منا لخداعهم في الليلتين السابقتين.

غير أن الملك والدوق لم ينزعجا بسبب هذا، فقد جمعا أربعمائة وخمسة وستين دولارًا في هاتين الليلتين! لم أر مثل هذا الكم من المال يُغتنم من قبل.

الفصل الثاني عشر

هارفي وويليام ويلكس

بعد بضعة أيام أراد الملك والدوق أن يكررا تلك الحيلة من جديد، فخبأنا الطوف ولازمه جيم والدوق، ثم استقللت أنا والملك زورقًا بخاريًّا يعبر النهر، وفيما نحن على متنه أخذ أحد الركاب يحدث الملك؛ أخبرنا عن عائلة بالجوار تتوقع بعض الزوار قريبًا.

قال لنا الشاب إن أخوين يدعيان بيتر وجورج ويلكس قد توفيا قبل وقت قريب. توفي جورج أولًا ثم بيتر، وأخواهما هارفي وويليام آتيان لزيارة منزل العائلة، لأن بيتر أرسل في طلبهما قبل أن يموت، ثم أبلغنا الشاب أن ويليام لا يستطيع السمع أو الكلام.

ثم استطرد قائلًا إن بيتر ترك خطابًا لهارفي يذكر فيه أين خبأ ماله والكيفية التي يود أن توزع بها أملاكه بعد وفاته، فقد أراد أن يتيقن من أن ابنتي جورج ستكونان بخير.

فسأل الملك: «لِم لم يصل هارفي بعد؟ وأين يقيم؟»

فأجاب الشاب: «آه، إنه يقيم في إنجلترا، في شيفيلد، ويلقي العظات هناك. لم يأت هارفي إلى هذا البلد من قبل؛ فهو لا يملك الكثير من الوقت، ولعله لم يتلق حتى الخطاب على الإطلاق.»

فقال الملك: «تلك الفتيات المسكينات! سيتركن وحدهن هكذا في هذا العالم القاسي.»

استمر الملك في طرح الأسئلة إلى أن أفرغ كل ما بجعبة الشاب، فسأل عن الجميع، وعن كل شيء بالبلدة، وعلم كل شيء عن آل ويلكس، واكتشف أن والد بيتر يعمل دباغًا، وأن جورج كان نجارًا وأن هارفي وزيرًا وما إلى ذلك.

سأل الملك: «هل كان بيتر ويلكس ميسور الحال؟»

فأجاب الشاب: «آه، نعم، كان ميسور الحال جدًّا. لقد امتلك منازل وأراضي، ويعتقد أنه ترك ثلاثة أو أربعة آلاف دولار نقدًا مخبأة في مكان ما.»

– «ذكرت أنه توفي متى؟»

– «لم أذكر ذلك، لقد توفي ليلة أمس.»

– «إذن العزاء غدًا على الأرجح، أليس كذلك؟»

– «نعم، يقام في منتصف اليوم.»

– «الأمر برمته محزن للغاية، لكن الموت قدرنا جميعًا، لذا يجدر بنا أن نتأهب لذلك، عندها سنكون بخير.»

– «نعم يا سيدي. تلك هي أفضل طريقة. اعتادت أمي أن تقول لي هذا دائمًا.»

فلما ترجلنا من الزورق البخاري على الجانب الآخر من النهر، وغادر الآخرون جميعًا، قال لي الملك: «الآن عد بسرعة وائت بالدوق إلى هنا واجلب الأخراج. بسرعة!»

علمت ما الذي يدبره، لكنني لم أنبس بكلمة قط بالطبع، فلما عدت بالدوق أخبره الملك كل شيء، وأعاد عليه المعلومات كما قالها الشاب بالضبط؛ أعاد عليه كل كلمة، وحاول طيلة الوقت أن يتحدث كرجل إنجليزي، وقد أجاد ذلك إجادة جيدة، ثم سأل الدوق: «إلى أي مدى تستطيع أن تتظاهر بأنك لا تسمع أو تتكلم يا بيلجووتر؟»

فقال الدوق إنه تظاهر بذلك من قبل على المسرح.

بلغنا القرية فأبصر قدومنا نحو عشرين شخصًا أتوا راكضين للقائنا.

فسألهم الملك بلكنته الغريبة: «هل منكم أيها السادة من يستطيع أن يخبرني أين يقيم السيد بيتر ويلكس؟»

فتبادل الرجال النظر وأومئوا برءوسهم، ثم قال أحدهم برقة ولين: «أنا آسف يا سيدي، لكن أقصى ما نستطيع القيام به هو أن نخبرك أين لفظ آخر أنفاسه مساء البارحة.»

فشرع الملك في البكاء، وقال: «وا أسفاه! وا أسفاه! أخونا المسكين! ذهب ولن نراه مجددًا. آه، كم هذا صعب!»

ثم التفت وصنع للدوق بيده بعض الإشارات باكيًا، فأخذ الأخير أيضًا في البكاء!

فاحتشد الرجال حولهما وحاولوا مواساتهما وقالوا لهما كل أنواع الكلم الطيب، وحملوا خرجيهما لهما إلى أعلى التل، وتركاهما يتكئان عليهم وهم يقصصون للملك آخر لحظات أخيه، فأشار الملك بيده إلى الدوق مخبرًا إياه بكل ما سمعه. لم أر مثيلًا لهذين الرجلين في حياتي.

الفصل الثالث عشر

خطة الدوق

سرت الأنباء إلى كل أنحاء البلدة في غضون دقائق، وفي وقت بالغ القصر أحاط حشد بنا، وامتلأت النوافذ والباحات الأمامية بالناس. في أحيان كثيرة كان أحد الأشخاص يصيح من خلف سور: «أهؤلاء هم؟»

فيجيبه أحد من يسيرون معنا: «لا شك في هذا.»

عندما بلغنا منزل بيتر، كان الشارع الأمامي للمنزل قد اكتظ بالناس، ووقفت ثلاث فتيات عند بابه، لكن من حسن الحظ أننا تعرفنا على الجميع من القصة التي أخبرنا بها الشاب؛ ماري جين كانت الأكبر، وقد اتسمت بجمال بارع، وجهها وعيناها نضحا بالسعادة؛ كانت شديدة السرور بمجيء عميها، ففتح لها الملك ذراعيه، فارتمت بينهما، فيما احتضنت فتاة أخرى خرجت منها الكلمات بصعوبة الدوق، ووقفت الفتاة الثالثة بالجوار تشاهد وحسب.

ثم رأى الملك والدوق تابوت بيتر الذي ارتكز على كرسيين، فسارا إليه والجدية الشديدة بادية عليهما، ثم حجبا عينيهما وكأن المشهد يؤلمهما، وأفسح لهما الجميع، وتوقف الكلام والضجيج، ووقف الملك والدوق أمام التابوت بضع ثوان ثم انفجرا بالبكاء وجثيا إلى جانبه وتظاهرا بالصلاة عليه. نجح هذا في التأثير في الحشد تأثيرًا كبيرًا. إنه مشهد لم تره قط في حياتك. الجميع انفجروا باكين.

لم يمض وقت طويل قبل أن يقف الملك ويلقي خطابًا مليئًا بالدموع والهراء عن مدى صعوبة فقدان بيتر له ولأخيه المسكين، وعن حزنه الشديد لأن رؤية أخيه حيًّا فاتته بعد رحلته الطويلة من إنجلترا، وتحدث تقريبًا عن الجميع في البلدة ذاكرًا قدر المستطاع أشخاصًا بأسمائهم، كما أخبرنا الشاب في اليوم السابق، وذكر كل صغيرة وقعت في وقت ما بالبلدة، أو ما وقع لأسرة جورج وبيتر، وجعل الأمر يبدو وكأن بيتر كاتبه مخبرًا إياه

بكل هذه الأمور، لكن هذا كذب، فقد سمع أدق التفاصيل من الشاب الذي كان على متن الزورق البخاري.

فأحضرت ماري جين الخطاب الذي تركه عمها، فقرأه الملك بصوت عالٍ وبكى عليه. شرح الخطاب كيف أراد بيتر أن توزع ثروته بين الفتيات وأخويه، ووصف المكان الذي خُبئت فيه ستة آلاف دولار في قبو المنزل. صحبني النصّابان معهما إلى طابق سفلي، فلما عثرنا على حقيبة النقود، أوقعا المال على الأرض.

قال الدوق: «لدي فكرة. لنصعد إلى الطابق العلوي ونحصي المال ونعطيه للفتيات!»

فقال الملك: «إنها أفضل فكرة واتتك. سيصدقن حتمًا أننا أعمامهن إن أعطيناهن النقود.»

لما عاد الملك إلى الطابق العلوي. ألقى خطبة أخرى عن بيتر ويلكس ثم أعطى الحقيبة المملؤة بالنقود لماري جين، فاحتضنته، وذهبت الابنتان الأخريان لتحتضننا وتقبلا الدوق.

لم يلبث الملك بعدئذ أن خاض مجددًا في حديث عن المتوفى، واضطر الدوق إلى التظاهر بأنه لا يستطيع السمع أو الكلام، لكن الملك لم يجد صعوبة في الكلام، فظل يتحدث بلا انقطاع. شعرت أنه غالى في الأمر كثيرًا، مع أن الغالبية بدا أنها تصدقه.

لكن عندئذ علت ضجة بين الحشد وقال شخص ما: «دكتور روبينسون! أما علمت؟ هذا الرجل هو هارفي ويلكس.»

فابتسم الملك وحاول أن يصافح الدكتور روبينسون.

فقال الأخير: «أبعد يديك عني!»

«أتعتقد أنك تتحدث بلكنة إنجليزية؟ هذا أسوأ تقليد سمعته. أنت لست أخا بيتر ويلكس. أنت محتال!»

أزعج هذا الحشد بشدة؛ كان الملك قد نجح في إقناع الجميع تقريبًا بأنه حقًّا هارفي ويلكس، لكن لما قالت ماري جين إنها تصدقه، حسم هذا الأمر لدى الجميع عدا الدكتور روبينسون العجوز.

حضرنا عشاءً كبيرًا مع بنات جورج مساء ذلك اليوم، ثم أعددن لكل من الملك والدوق غرفة. أمضيت بعض الوقت في الحديث إلى كل منهن، ولم يكن هذا سهلًا، أؤكد لكم هذا؛ إذ كنت أحاول تقليد لكنة الملك الإنجليزية. حسبت أنهن سيكشفن أمري على الفور، لكن ذلك لم يحدث، وبدأت أعتقد أن تلك الفتيات لطيفات ولا يستحققن أن

يسلبهن هذان النصابان أموالهن. شعرت بخستي ووضاعتي الشديدة حتى إنني قررت أن أسلب الملك والدوق المال.

عندما استلقيت على فراشي تلك الليلة حاولت أن أصل إلى طريقة لخداع هذين الرجلين. قررت أن أسرق المال منهما وأن أخفيه في مكان ما، بعدها أستطيع أن أترك رسالة لماري جين أخبرها فيه بالمكان الذي سأخبئ فيه المال، بذا تستطيع أن تحصل على المال بعد مغادرتنا.

بدأت أفتش غرفة الملك، لكنني اضطررت إلى الاختباء عندما سمعت الرجلين يصعدان الدرج. دخلا الغرفة وتحدثا عن خطتهما. سماعها أوقع في نفسي الرعب. كنت أعلم مسبقًا أنهما أرادا سرقة الستة آلاف دولار، لكنهما أرادا أيضًا أن يبيعا المنزل وكل ما امتلك بيتر ويلكس. بعبارة أخرى أرادا أن يتركا الفتيات بلا شيء!

تذمر الدوق قائلًا إنه لم يرد سلب الكثير من الأيتام من «كل» ما يملكونه.

فقال الملك: «ما هذا الذي تقوله! لن نسلبهم إلا النقود. من يشتري الأملاك سيضطر إلى إعادتها كلها إلى الفتيات ما إن يكتشفن أننا لسنا حقًّا إخوة ويلكس. هذا هو القانون. لن يعانين على الإطلاق.»

ظل الملك يتحدث ويتحدث إلى أن أقنع الدوق، وبعد أن خبئا كيس النقود، عادا إلى الطابق السفلي ليتمنيا للجميع ليلة هانئة.

حصلت على كيس النقود قبل أن يبلغا منتصف الدرج، ثم عدت إلى غرفتي. خمنت أنهما لن يلحظا اختفاء المال لوقت قصير، لكنهما سيأتيان للبحث عنه عندما يكتشفان اختفاءه، لذا أردت إخفاءه على جناح السرعة.

انتظرت إلى أن تيقنت من أن الجميع نيام، ثم تسللت هابطًا الدرج بالنقود، ورأيت التابوت في صالة الاستقبال. كانت الاستعدادات قد اتخذت لإقامة الجنازة في اليوم التالي. دخلت الصالة ونظرت حولي. المكان الوحيد الذي رأيت إخفاء النقود فيه هو التابوت، فدسست كيس النقود تحت غطائه، تحت يدي الرجل المتوفى المنعقدين بالضبط، فسرت قشعريرة في جسدي. يداه كانتا شديدتا البرودة.

انعقدت الجنازة في اليوم التالي. لا شك أنني استغربت رؤية التابوت يدفن. كنت الوحيد الذي يعلم أن بداخله ستة آلاف دولار مخبأة.

أخبر الملك الفتيات مساء ذلك اليوم أن عليه هو وويليام أن يسارعا بالعودة إلى إنجلترا، وأراد من الفتيات أن يحددن ميراثهما في أسرع وقت ممكن. قال إنه سيقيم

مزادًا لبيع المنزل وكافة الأملاك، بل وزعم أنه وويليام سيصحبانهن إلى إنجلترا! شعرت الفتيات بالسعادة البالغة لسماع هذه الأنباء، ووافقن على الفور وطلبن من الملك بيع كل شيء بأقصى سرعة يرتضيها.

الفصل الرابع عشر

اعتراف هاك

أيقظني الملك والدوق باكرًا صباح اليوم التالي. أنبأني وجهاهما بأن هناك مشكلة.

سأل الملك: «هل كنت في غرفتي الليلة الماضية أو الليلة السابقة عليها؟»

فأجبته: «كلا، يا صاحب الجلالة.»

– «هل رأيت أحدًا آخر يذهب إلى هناك؟»

فتظاهرت بالتفكير للحظة ثم أخبرتهما بأنني رأيت عدة مرات بعض العبيد يدخلون غرفة الملك.

فقفز كلاهما قليلًا وبدا كأنهما لم يتوقعا هذا قط، ثم تبدلت تعابير وجهيهما وبدا وكأنهما توقعا بالفعل أن يسرق العبيد المال.

بدا عليهما الغضب والانزعاج؛ وقفا مكانهما يفكران ويحكان رأسيهما دقيقة ثم أطلق الدوق ضحكةً خافتةً بصوت أجش، وتحدثا عن ذكاء هؤلاء العبيد الشديد، فسألت هل هناك خطب ما؟ فغضبا بشدة مني لسؤالي هذا ولأنني لم أخبرهما بأنني رأيت العبيد يدخلون الغرفة. كان العبيد قد تركوا المنزل اليوم السابق على ذلك، عندما ذاعت أنباء بأن الملك والدوق ينويان إقامة مزاد لبيع جميع الأملاك.

كنت أعلم أن الملك والدوق لن يودا أن يخبراني باختفاء المال، إذ لم يخطر ببالهما أنني أعلم بأنه كان معهما من الأساس! لم يحسبا أنني قد علمت بخطتهما لسرقة الفتيات.

رأيت ماري جين تبكي في اليوم التالي، فلما ذهبت إليها لأحدثها أخبرتني بأنها تشعر بالحزن لمغادرة منزلها؛ قالت إنها شعرت بالحماسة لأنها ستسافر إلى إنجلترا عما قريب، لكنها مع ذلك تشعر بالحزن لمغادرة منزلها، فلما وجدتها تبكي إلى هذا الحد وتصدق أن هذين المحتالين هما حقًّا عماها، لم أستطع الاستمرار في الكذب عليها.